قد كُلِّفا سترَ ما لم يبدُ لهما ، ولا كُلِّفاه بعد أن بدَت لهما وقبل سترهما[1] .

وقالت طائفة أخرىٰ : بل سترُ العورة واجبٌ بالشرع ؛ لأنَّه بعضُ الجسد الذي لا يوجب العقلُ سترَ باقيه ، وإنَّما اختصَّت العورة بحكمٍ شرعي ، فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكماً شرعيّاً .

وقد كانت قريش وأكثرُ العرب مع ما كانوا عليه من وُفور العقل ، وصحّة الألباب . . يطوفون بالبيت عُراةً ، ويحرِّمون علىٰ أنفسهم اللحمَ والوَدَكَ ، ويرَون ذلك أبلغَ في القُرْبة ، وإنَّما القُرَبُ : ما استُحسِنت في العقل ، حتىٰ أنزل الله تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ .

يعني بقوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ ﴾ : الثيابَ التي تستر عوراتِكم ، ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ : ما حرَّمتُموه علىٰ أنفسكم من اللَّحم والوَدَك .

❀ ❀ ❀

وفي قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ تأويلان :

أحدهما : لا تسرفوا في التحريم ، وهـٰذا قول السدّيّ .

والثاني : لا تأكلوا حراماً ؛ فإنَّه إسرافٌ ، وهـٰذا قول ابن زيد[2] .

فأوجب بهـٰذه الآية سترَ العورة بعد أن لم يكنِ العقلُ موجباً له ، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ سترَها وجب بالشرع دون العقل .

❀ ❀ ❀

وأمّا الجمال به والزينة : فهو مستحسَنٌ بالعُرف والعادة من غير أن يوجبه عقلٌ أو شرعٌ ، وفي هـٰذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير .

---

(١) لأنهما لم يكلفا ما داما في الجنة ، ومن هنا نعلم : أن المراد بالمعصية هو المعنى اللغوي لا المعنى الشرعي فتنبه .

(٢) انظر تفسير الآية ، وتفصيل الأقوال فيها في « تفسير الطبري » (٥/٨/٢٠٣) وما بعدها .

والتوسُّط المطلوب فيه معتبرٌ من وجهين : أحدهما : في صفة الملبوس وكيفيّته ، والثاني : في جنسه وقيمته .

فأمّا صفته : فمعتبرةٌ بالعُرف من وجهين :

أحدهما : عُرف البلاد ؛ فإنَّ لأهل المشرق زِيّاً مألوفاً ، ولأهل المغرب زِيّاً مألوفاً ، وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عاداتٌ في اللباس مختلفة .

والثاني : عُرف الأجناس ؛ فإنَّ للأجناد زِيّاً مألوفاً ، وللتجّار زِيّاً مألوفاً ، وكذلك لِمَن سواهما من الأجناس المختلفة عاداتٌ في اللباس مختلفة .

وإنَّما اختلفت عادات الناس في اللباس من هٰذين الوجهين ؛ ليكون اختلافهم فيها سِمَةً يتميَّزون بها ، وعلامةً لا يَخفَون معها ، فإن عدل أحدٌ في لباسه عن عُرف بلده وجنسه . . كان ذلك منه خُرْقاً وحُمْقاً ؛ ولذلك قيل : (العُرْيُ القادحُ خيرٌ من الزِّيِّ الفاضح)(١) .

وأمّا جنسُ الملبوس وقيمته . . فمعتبرٌ من وجهين :

أحدهما : بالمَكِنة من اليسار والإعسار ؛ فإنَّ للموسر في الزِّيِّ قدراً ، وللمعسر دونه .

والثاني : بالمنزلة والحال ؛ فإنَّ لذي المنزلة الرفيعة في الزِّيِّ قدراً ، وللمنخفض عنه دونه ؛ ليتفاضلوا فيه علىٰ حسب تفاضل أحوالهم ، فيصيروا به متميِّزين .

فإن عدل الموسِرُ إلىٰ زِيِّ المعسِر . . كان شُحّاً وبخلاً ، وإن عدل الرفيعُ إلىٰ زِيِّ الدَّنيِّ . . كان مَهانةً وذُلّاً ، وإن عدل المعسِرُ إلىٰ زِيِّ الموسِر . . كان تبذيراً وسَرَفاً ، وإن عدل الدَّنيُّ إلىٰ زِيِّ الرفيع . . كان جهلاً وتخلُّفاً .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٨٢) ، و« الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٦٣) .

ولزومُ العُرف المعهود ، واعتبارُ الحدِّ المقصود . . أدلُّ على العقل ، وأمنعُ من الذمِّ ؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (إيّاكُمْ ولِبْستَيْنِ : لِبْسةً مشهورةً ، ولِبْسةً محقورةً)[1] .

وقال بعض الحكماء : (البَسْ من الثياب ما لا يزدريكَ فيه العظماءُ ، ولا يعيبه عليك العلماء)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الكامل]

إنَّ العُيونَ رمَتْكَ إذْ فاجأْتَها ... وعليكَ مِن شَهْرِ الثِّيابِ لِباسُ
أمّا الطَّعامُ فكُلْ لنفسِكَ ما تَشا ... واجعَلْ لِباسَكَ ما اشتهاهُ الناسُ

* * *

واعلم : أنَّ من المروءة أن يكونَ الإنسانُ معتدلَ الحال في مراعاة لباسه ، من غير إكثار ولا اطِّراح ؛ فإنَّ اطِّراحَ مراعاتها ، وتركَ تفقُّدها . . مَهانةٌ وذُلٌّ ، وكثرةَ مراعاتها ، وصرفَ الهمّة إلى العناية بها . . دَناءةٌ ونقصٌ .

وربَّما توهَّم بعضُ مَن خلا من فضلٍ ، وعَرِي عن تمييزٍ . . أنَّ ذلك هو المروءة الكاملة ، والسيرةُ الفاضلة ؛ لما يرىٰ من تمييزه بذلك عن الأكثرين ، وخروجه عن جملة العوامِّ المسترذَلين ، وخفي عنه أنه إذا عدا طورَه ، وتجاوز قدرَه . . كان أقبحَ لذكره ، وأبعثَ علىٰ ذَمِّه ، وكان كما قال المتنبي[4] : [من البسيط]

لا يُعجِبَنَّ مَضِيماً حُسنُ بِزّتِهِ ... وهل يَروقُ دَفيناً جَودةُ الكَفَنِ

وحكى المبرِّدُ : أنَّ رجلاً من قريش كان إذا اتَّسعَ . . لبس أرثَّ ثيابه ، وإذا

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٧) ، و« نثر الدرّ » (٢/ ٥٩) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/ ٢٦٢) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٣٠٢) من قول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) أورد البيتين في « بهجة المجالس » (٢/ ٥٨) ، و« ربيع الأبرار » (٥/ ٢١) ؛ وفيه : (أما الطعام . . فكلْ لنفسك ما اشتهتْ) .

(٤) البيت في « ديوانه » (٤/ ٢١٣) ، وقد شبه المظلوم الذي لا يدفع الظلم عن نفسه بالميت ، وجعل ثوبه كالكفن .

أضاق . . لبس أحسنَها ، فقيل له في ذلك ، فقال : (**إذا اتَّسعتُ . . تزيَّنتُ بالجود ، وإذا أضَقْتُ . . فبالهيئة**)[1] .

وقد أتى ابنُ الروميِّ بأبلغَ من هـٰذا المعنىٰ في شعره ، فقال[2] : [من الطويل]

وما الحَلْـيُ إلاّ زِينـةٌ لنَقيصـةٍ ... يُتمِّمُ مِن حُسنٍ إذا الحُسنُ قَصَّرا

فـأمّـا إذا كـان الجَمـالُ مُـوفَّـراً ... كحُسنِكِ لم يَحتَجْ إلىٰ أن يُزَوَّرا

ولذلك قالت الحكماء : (**ليست العِزّة في حُسن البِزّة**)[3] .

وقال بعض الشعراء[4] : [من الكامل]

وترىٰ سَفيهَ القومِ يدنَسُ عِرضُهُ ... سَفَهـاً ويمسَـحُ نَعْلَـهُ وشِـراكَهـا

وإذا اشتدَّ كَلَفُه بمراعاة لباسه . . قطعه ذلك عن مراعاة نفسه ، وصار الملبوسُ عنده أنفسَ ، وهو علىٰ مراعاته أحرصَ .

وقد قيل في منثور الحكم : (**البَسْ من الثِّياب ما يخدُمُك ولا يستخدمُك**)[5] .

وقال خالد بن صفوان لإياس بن معاوية : (**أراكَ لا تُبالي ما لبستَ ؟** قال : **ألبَسُ ثوباً أقِي به نفسي . .** أحبُّ إليَّ من لُبْس ثوبٍ أقِيه بنفسي)[6] .

وكما أنَّه لا يكون شديدَ الكَلَف بها . . فكذلك لا يكون شديدَ الاطِّراح لها ؛ فقد حكى ابن عائشةَ : أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فنظر إليه رَثَّ الهيئة ، فقال : « **ما مالُكَ ؟** » قال : مِن كلِّ المالِ قد آتاني اللهُ ، قال : « **فإنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ إذا أنعَمَ على امرىءٍ نِعمةً . . أن ينظرَ إلىٰ أثرِها عليهِ** »[7] .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٧) ؛ وفيه : (إذا اتسعت . . تزينت بالهيبة) .

(٢) البيتان في « ديوانه » (٣/ ١٠٠٧) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٨٤) .

(٤) البيت لأبي الأسود الدُّؤَليّ في « ديوانه » (ص ١٧٣) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٨٢) ، و« محاضرات الأدباء » (٤/ ٩) .

(٦) رواه الحافظ المزّيّ في « تهذيب الكمال » (٣/ ٤٣٤) .

(٧) رواه الترمذي (٢٠٠٦)، والنسائي (٨/ ١٨١) عن سيدنا عوف بن مالك بن نضلة الجُشَميّ رضي الله عنه .

وقد قيل : (**المروءةُ الظاهرةُ في الثياب الطاهرة**)[1] .

* * *

وهكذا القولُ في غِلمانه وحَشَمه ؛ إن اشتدَّ كَلَفُه بهم .. صار عليهم قَيِّماً ، ولهم خادماً ، وإن اطَّرحهم .. قلَّ رشادُهم ، وظهر فسادُهم ، وصاروا سبَباً لمَقته ، وطريقاً إلىٰ ذَمِّه[2] ، **ولٰكنْ يكفُّهم عن سيِّءِ الأخلاق ، ويأخذُهم بأحسن الآداب** ؛ كما قال فيهم الشاعر[3] : [من الكامل]

سَهْـلُ الفِنـاءِ إذا مَـرَرْتَ ببـابِـهِ ... طَلْـقُ اليَـدَيـنِ مـؤدَّبُ الخُـدّامِ

وليكنْ في تفقُّد أحوالهم علىٰ ما يحفظ تجمُّلَه ، ويصونُ تبذُّلَه .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ادَّهِنُوا .. يَذهَبِ البؤسُ عنكُمْ ، والبَسُوا .. تظهَرْ نِعمةُ اللهِ عليكُمْ ، وأحسِنُوا إلىٰ مَماليكِكُم ؛ فإنَّه أكبَتُ لعدوِّكُم** »[4] .

وليتوسَّطْ فيهم ما بين حالتي اللِّين والخُشونة ؛ فإنَّه إن لان .. هان عليهم ، وإن خشُنَ .. مقَتُوه ، وكان علىٰ خطَر منهم .

حُكي : أنَّ المُوبَذَ سمع ضَحِكَ الخدَم في مجلس أنوشروان ، فقال له : (**أما تمنعُ هؤلاءِ الغلمانَ** ؟! فقال أنوشروان : **إنَّما يهابُنا أعداؤُنا**)[5] .

---

(١) رواه ابن شبّة في « تاريخ المدينة » (٢/ ٧٧٢) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه ، وأورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٧٦) من قول سيدنا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه .

(٢) لأن العبد إذا شبع .. فسق ، وإذا جاع .. سرق .

(٣) أورد البيت في « معجم الشعراء » (ص ٤٠٣) ، والتبريزي في « شرح ديوان الحماسة » (٢/ ٣٠٢) لمحمد بن بشير الخارجيّ ، وانظر « الحماسة البصرية » (٢/ ٧١٤) .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٢٦٣) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، **وأكبت لعدوكم** : أشد قهراً وأكثر إذلالاً ؛ لأن في الرِّقِّية أثر الكفر ، فلهم ميل طبيعي إلى الأعداء ، والإحسان يحسمه .

(٥) أورده في « لباب الآداب » (ص ٣٨) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٤٣٣) ، **والمُوبَذ** : فقيه الفرس وحاكم المجوس .

وقال أبو تمام الطائي[1] : [من الكامل]

حَشَمُ الصَّديقِ عُيُونُهُمْ بَحّاثةٌ لصديقِهِ عن صِدْقِهِ ونِفاقِهِ
فلْيُنظَرَنَّ المرءُ مِنْ غِلْمانِهِ فهُمُ خلائفُهُ علىٰ أخلاقِهِ

واعلم : أنَّ للنفس حالتين : حالةَ استراحة ، إن حرمتها إياه . . كلَّتْ ، وحالةَ تصرُّفٍ ، إن أرحتَها فيه . . اختلَّتْ ، فالأَولىٰ بالإنسان تقديرُ حالتيه : حالةِ نومه ودَعَته ، وحالةِ تصرُّفه ويقظته ؛ فإنَّ لهما قدراً محدوداً ، وزماناً مخصوصاً ، يضرُّ بالنفس مجاوزةُ حدِّهما ، وتغيُّرُ زمانهما .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نَوْمةُ الصُّبْحةِ : مَعجَزةٌ مَنفَخةٌ ، مَكسَلةٌ مَورَمةٌ ، مَفشَلةٌ مَنساةٌ للحاجةِ »[2] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (النوم ثلاثة : نومةُ خُرْقٍ وهي الصُّبْحةُ ، ونومةُ خُلُقٍ وهي القائلةُ ، ونومةُ حُمْقٍ وهي العَشيُّ)[3] .

بل قد روىٰ محمد بن يزداد ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نومُ الضُّحىٰ خُرْقٌ ، والقيلُولةُ خُلُقٌ ، ونومُ العَشِيِّ حُمْقٌ » .

وقيل في منثور الحكم : (مَن لزِمَ الرُّقاد . . عدِمَ المُراد)[4] .

فإذا أعطى النفسَ حقَّها من النوم والدَّعَة ، واستوفىٰ حقَّه منها بالتصرُّف

(١) البيتان في « ديوانه » (٤/ ٤٧٩) .
(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٠٤٧) من قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وأورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ٢٤٥) بنحوه ، والصبحة : من طلوع الفجر إلى الزوال ، ومعجزة : سبب عجز عن القيام بمصالحه ، ومنفخة : سبب انتفاخ من الريح ، ومورمة : سبب لورم الجلد وذهاب بهاء الوجه ، ومفشلة : سبب كسل وضعف ، ومنساة للحاجة : سبب لنسيانها أو تأخرها .
(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١٢٤٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٢١٢) من قول سيدنا خَوّات بن جُبير رضي الله عنه .
(٤) أورده في « المستطرف » (١/ ٩١) .

واليقظة . . خلص بالاستراحة من عجزها وكَلالها ، وسلم بالرياضة من بَلادتها وفسادها .

حُكي : أنَّ عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل علىٰ أبيه ، فوجده نائماً ، فقال له : (يا أبتِ ؛ أتنامُ والناسُ بالباب ؟! فقال : يا بنيَّ ؛ نفسي مَطيّتي ، وأكرهُ أن أُتعِبَها ، فتقومَ بي)[1] .

وينبغي أن يقسمَ حالَ تصرُّفه ويقظته على المهمِّ من حاجاته ؛ فإنَّ حاجة الإنسان لازمةٌ ، والزمانَ يقصُرُ عن استيعاب المهمِّ ، فكيف به إن تجاوز إلىٰ ما ليس بمهمٍّ ؟! هل يكون إلاّ : [من المتقارب]

كتــاركــةٍ بَيْضَهــا بــالعَــراءِ ومُلبِســةٍ بَيْــضَ أُخــرىٰ جَنــاحــا[2]

ثم عليه أن يتصفَّحَ في ليله ما صدر من أفعال نهاره ؛ فإنَّ الليلَ أحضرُ للخاطر ، وأجمعُ للفكر ؛ فإن كان محموداً . . أمضاه ، وأتبعه بما شاكله وضاهاه ، وإن كان مذموماً . . استدركه إن أمكن ، وانتهىٰ عن مثله في المستقبل ، فإنَّه إذا فعل ذلك . . وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال :

إمّا أن يكون قد أصاب فيها الغرضَ المقصود بها ، أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير مواضعها ، أو يكون قد قصر فيها فنقصت عن حدودها ، أو يكون قد زاد فيها حتّىٰ تجاوزت محدودَها[3] .

وهٰذا التصفُّح إنما هو استظهارٌ بعد تقديم الفكر قبل الفعل ؛ ليعلمَ به[4] مواقعَ الإصابة ، وينتهز به استدراكَ الخطأ[5] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٧٠٠) ، وأورده في « بهجة المجالس » (١/١١٦) .

(٢) البيت لإبراهيم بن هرمة في « ديوانه » (ص ٨٧) .

(٣) فإن أمكن الاستئناف في هٰذه الصور الثلاثة . . استدرك فيها ؛ وإلا . . فينتهي عن مثلها في المستقبل .

(٤) هنا تنتهي النسخة (ب) .

(٥) يعلم به مواقع الإصابة من الفكر المتقدم ، وينتهز به استدراك الخطأ ، فيرجع عن قريب ؛ وذلك لأن الأفعال : إما أن تقع علىٰ وفق التصور بلا زيادة ولا نقصان ؛ وذلك الحذق التام والتجربة الكاملة ، أو يصيب في بعضٍ ويخطىء في بعض ، فثمرة الاستظهار تعديل ذلك والتمهر في الفكر المتقدم .

وقد قيل : (مَن كثُرَ اعتبارُه . . قلَّ عِثارُه)[١] .

وكما يتصفَّح أفعال نفسه . . فكذا يجب أن يتصفَّح أفعال غيره ، فربَّما كان استدراكُ الصوابِ معها أسهلَ ؛ لسلامة النفس من شُبَه الهوىٰ ، وخلوِّ الخاطر من حسن الظن ، فإن ظفر بصواب وجده من غيره ، أو أعجبه جميلٌ من فعله . . زيَّن نفسَه بالعمل به ؛ فإنَّ السعيدَ مَن تصفَّح أفعالَ غيره فاقتدىٰ بأحسنها ، وانتهىٰ عن سيِّئها .

وقد روىٰ زيد بن خالد الجُهَنيُّ رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السَّعيدُ مَن وُعِظَ بغيرِهِ »[٢] .

وقال الشاعر[٣] : [من البسيط]

إنَّ السعيدَ له مِن غيرِهِ عِظةٌ ... وفي التَّجاربِ تحكيمٌ ومُعتبَرُ

وأنشدني بعض أهل العلم لطاهر بن الحسين[٤] : [من المتقارب]

إذا أعجبَتْكَ خِصالُ امرِئٍ ... فكُنْهُ يكُنْ منكَ ما يُعجِبُكْ

فليسَ على المَجدِ والمَكرُماتِ ... إذا جِئتَها حاجبٌ يحجُبُكْ

فأمّا ما يرومه من أعماله ، ويؤثر الإقدام عليه من مطالبه . . **فيجب أن يقدِّم الفكرَ فيه قبل دخوله ؛ فإن كان الرجاءُ فيه أغلبَ من الإياس منه** ، وحُمِدت العاقبةُ فيه . . **سلكه من أسهل مطالبه** ، وألطف جهاته ، وبقدر شرفه يكون الإقدام[٥] .

وإن كان الإياسُ أغلبَ عليه من الرجاء مع شدة التغرير[٦] ، ودناءة الأمر

---

(١) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٨) ، و« المستطرف » (١/ ٩١) .

(٢) رواه الشهاب في « مسنده » (٧٦) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٠٧٦) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ وتمامه : « والشقي مَنْ وُعظ به غيره » وهٰذا مما لم يُسبق إليه صلى الله عليه وسلم .

(٣) البيت للحارث بن حِلِّزة في « ديوانه » (ص ٦٧) .

(٤) أورد البيتين في « ديوان المعاني » (١/ ١٠٧) ، و« المنتحل » (ص ١٠٥) دون نسبة ، وفي « بهجة المجالس » (١/ ٧٩٦) لداوود بن جهور .

(٥) فالأمور العظام تستلزم إقداماً بليغاً ، والملال بعد الشروع عجزٌ وجهالة ، ومن قرع باباً . . ولج ، والجد يفتح كل باب مغلق .

(٦) التغرير : تعريض النفس للهلكة .

المطلوب . . فليحذَرْ أن يكون له متعرِّضاً ؛ فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا همَمْتَ بأمرٍ . . ففكِّرْ في عاقبتِهِ ؛ فإنْ كان رُشْداً . . فأمضِهِ ، وإنْ كان غَيّاً . . فانتهِ عنه »[1] .

وقالت الحكماء : (طلبُ ما لا يُدرَكُ عجزٌ) .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

فإيّاكَ والأمرَ الذي إنْ توسَّعَتْ مَـوارِدُهُ ضـاقَـتْ عليـكَ المَصـادِرُ
فمـا حَسَـنٌ أن يعـذرَ المـرءُ نفسَـهُ وليس له مِن سائرِ الناسِ عاذِرُ

وليعلَمْ أنَّ لكل حين من أيام عمره خُلُقاً ، وفي كل وقت من أوقات دهره عملاً ؛ فإن تخلَّق في كِبَره بأخلاق الصِّغَر ، وتعاطىٰ أفعالَ الفكاهة والبَطَر . . استصغره مَن هو أصغرُ ، وحقَره مَن هو أقلُّ وأحقرُ ، وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر[3] : [من المنسرح]

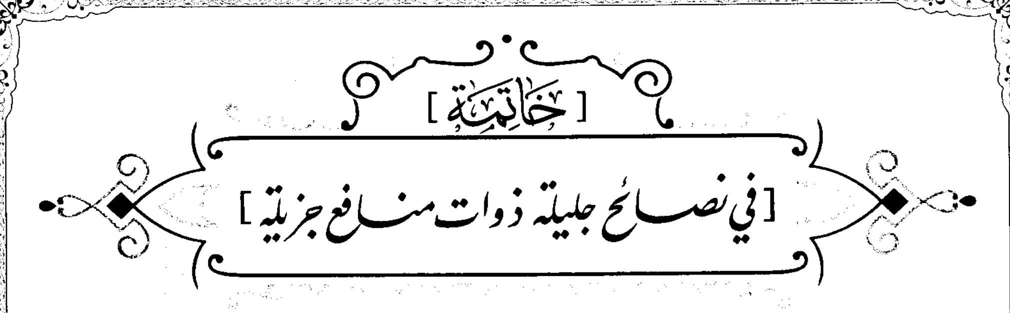
وكـــلُّ بـــازٍ يمَسُّـــهُ هَـــرَمُ تَخـرا علـىٰ رأسِـهِ العَصـافِيـرُ

---

(١) رواه هنّاد في « الزهد » (٥٣١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٣٥٩) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) البيتان لمضرِّس بن رِبْعيّ الأسديّ في « ديوان بني أسد » (٢/ ٢٦٨) .

(٣) أورده في « يتيمة الدهر » (٣/ ١٧) لابن سكّرة الهاشميّ .



[خاتمة]

[في نصائح جليلة ذوات منافع جزيلة]

فكنْ أيُّها العاقلُ مقبلاً علىٰ شأنك ، راضياً عن زمانك ، سِلْماً لأهل دهرك ، جارياً علىٰ عادة عصرك ، منقاداً لمَن قدَّمه الناس عليك ، متحنِّناً علىٰ مَن قدَّمكَ الناس عليه ، ولا تُبايِنْهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ، ولا تُجاهِرْهم بالمخالفة لهم فيعادُوك ، فلا عيشَ لممقوت ، ولا راحةَ لمُعادىً .

وأنشد بعض أهل الأدب : [من المتقارب]

إذا أجمعَ الناسُ في واحدٍ ... وخالفَهم في الرِّضا واحِدُ
فقد دَلَّ إجماعُهم دونَهُ ... علىٰ عَقْلِهِ أنَّه فاسِدُ

واجعل نُصحَ نفسك غنيمةَ عقلِك ، ولا تُداهِنْها بإخفاء عَيبك ، وإظهار عُذرِك ، فيصيرَ عدوُّك أحظىٰ بك في زجر نفسه بإنكارك ومجاهرتك من نفسك التي هي أخصُّ بك ؛ لإغرائك لها بأعذارك ومساترتك ، فحسبُك سوءاً برجلٍ ينفع عدوَّه ، ويضرُّ نفسَه .

وقد قال بعض الحكماء : (أصلحْ نفسَك لنفسك.. يكُنِ الناسُ تبعاً لك)[1] .

وقال بعض البلغاء : (مَن أصلحَ نفسَه.. أرغمَ أنفَ أعاديه ، ومَن أعملَ جِدَّه.. بلغ كُنْهَ أمانيه)[2] .

وقال بعض الأدباء : (مَن عرف مَعابَه.. فلا يلُمْ مَن عابَه) .

---

(١) أورده في « سراج الملوك » (٢/ ٤٧٢) من قول الخليل بن أحمد رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أورده في « سراج الملوك » (٢/ ٤٧٢) ، وأرغم أنف أعاديه : أذلَّهم بتقدمه وسده باب ذكر مساويه ، وكنه أمانيه : غاية ما يتمناه .

وأنشدني أبو ثابت النحويُّ لبعض الشعراء[١] : [من الطويل]

ومصروفةٍ عَيناهُ عن عَيبِ نفسِهِ ولو بانَ عيبٌ مِن أخيهِ لأبصَرا
ولو كان ذا الإنسانُ يُنصِفُ نفسَهُ لأمسَكَ عن عيبِ الصَّديقِ وقصَّرا

فهذِّبْ أيُّها الإنسانُ نفسَك بإنكار عيوبك ، وانفعها كنفعك لعدوِّك ؛ فإنَّ مَن لم يكن له من نفسه واعظٌ . . لم تنفعْه المواعظُ[٢] .

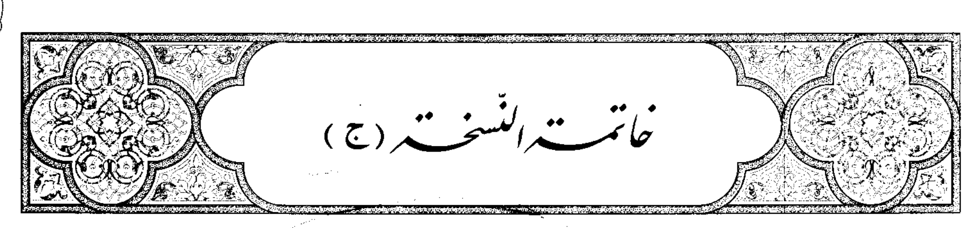
أعاننا الله وإياك على القول بالعمل ، وعلى النُّصح بالقبول ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العليّ العظيم .

تمّ الكتاب بحمد الله ومنّه
وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ الأمي وآله وسلّم
فُرِغ منه مقابلةً في سنة ثلاثٍ وخمس مئة
فرحم الله امرأً نظر فيه فترحّم على من صحّحه
والسّلام

(١) ومصروفةٍ : الواو واو (رُبَّ) ومصروفة : بالجر لفظاً وهي مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره : (لقيته) وتنكير (عيب) للتحقير ؛ كما أن تعريف الأول بالإضافة للتعظيم .

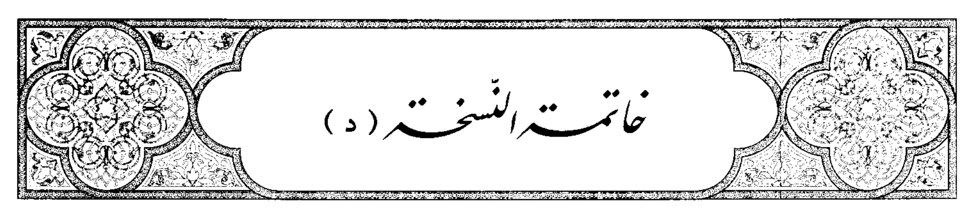
(٢) وقالوا : (إن أبواب الحصون لا تفتح إلا من بطونها) ، وقال أبو نواس : (من السريع)

لا تـــرجـــع الأنفـــس عـــن غيهـــا مـــا لـــم يكـــن منهـــا لهـــا زاجـــرُ

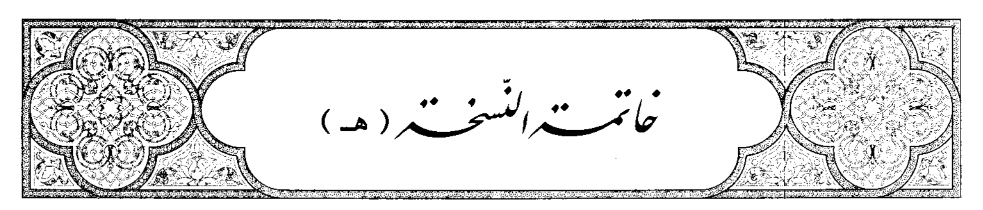


فرغ من هـٰذا الكتاب المسمىٰ « أدب الدين والدنيا » في يوم السبت المبارك ، عاشر شهر رمضان المعظَّم قدره ، الذي من شهور عام أحد وثمان مئة ، أحسن الله عاقبتها بخير ، آمين !!

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله ربِّ العالمين .



تم الكتاب بعون الملك الكريم الوهاب ، بعد عصر يوم الخميس ، منتصف شهر الله الحرام رجب ، إحدىٰ شهور سنة مئة وألف من بعد الهجرة النبوية ، علىٰ مهاجرها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .



وهـٰذا آخر ما تيسّر إيراده في هـٰذا التأليف ، والحمد لله على الكمال والتمام ، والصلاة والسلام علىٰ أفضل الرسل الكرام ، محمد سيد الأنام ، وعلىٰ آله وأصحابه الذين شيّدوا لنا أركان الدين وقواعد الإسلام .

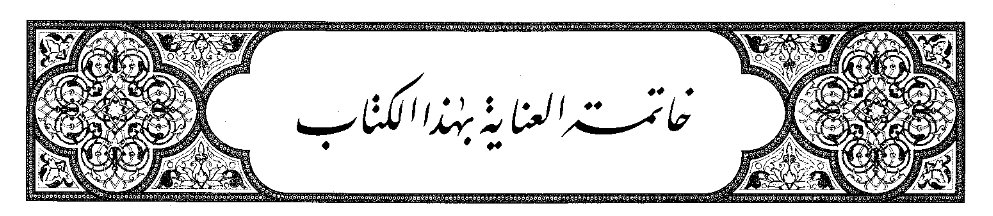
وقد تم بفضله تعالىٰ نقل هـٰذا الشرح من السواد إلى البياض في دار الخلافة العلية ، صانها الله تعالىٰ عن الآفات والبلية ، علىٰ يد مؤلفه : أويس وفا بن محمد الأرزنجاني الحنفي ، يوم الأحد : الحادي والعشرين من رجب ، لسنة سبع وعشرين وثلاث مئة وألف ، من هجرة مَنْ له العزة والشرف .

اللهم ؛ اجعله لنا ذخراً نافعاً ، وخيراً باقياً ، بحرمة الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، آمين .

يقول مؤلفه : قد طُبع هـٰذا الكتاب في المرة الأولىٰ في زمن السلطان الأعظم : **محمد رشاد خان المعظم** ، لا زالت لواؤه منشورة ، وبلاده معمورة ، وعساكره منصورة ، وأعداؤه مقهورة ؛ ما سجد ساجد ، ووفد وافد .

وقد قابلت المتن بنسخٍ خمسٍ من مطبوع وغير مطبوع سوىٰ ما صححتُ من الأصول والمآخذ من كتب التفاسير والأحاديث والأخلاق والدواوين .

وقد تم طبعه يوم الأحد ، التاسع من ذي الحجة ، لسنة **ثمان وعشرين وثلاث مئة وألف** .

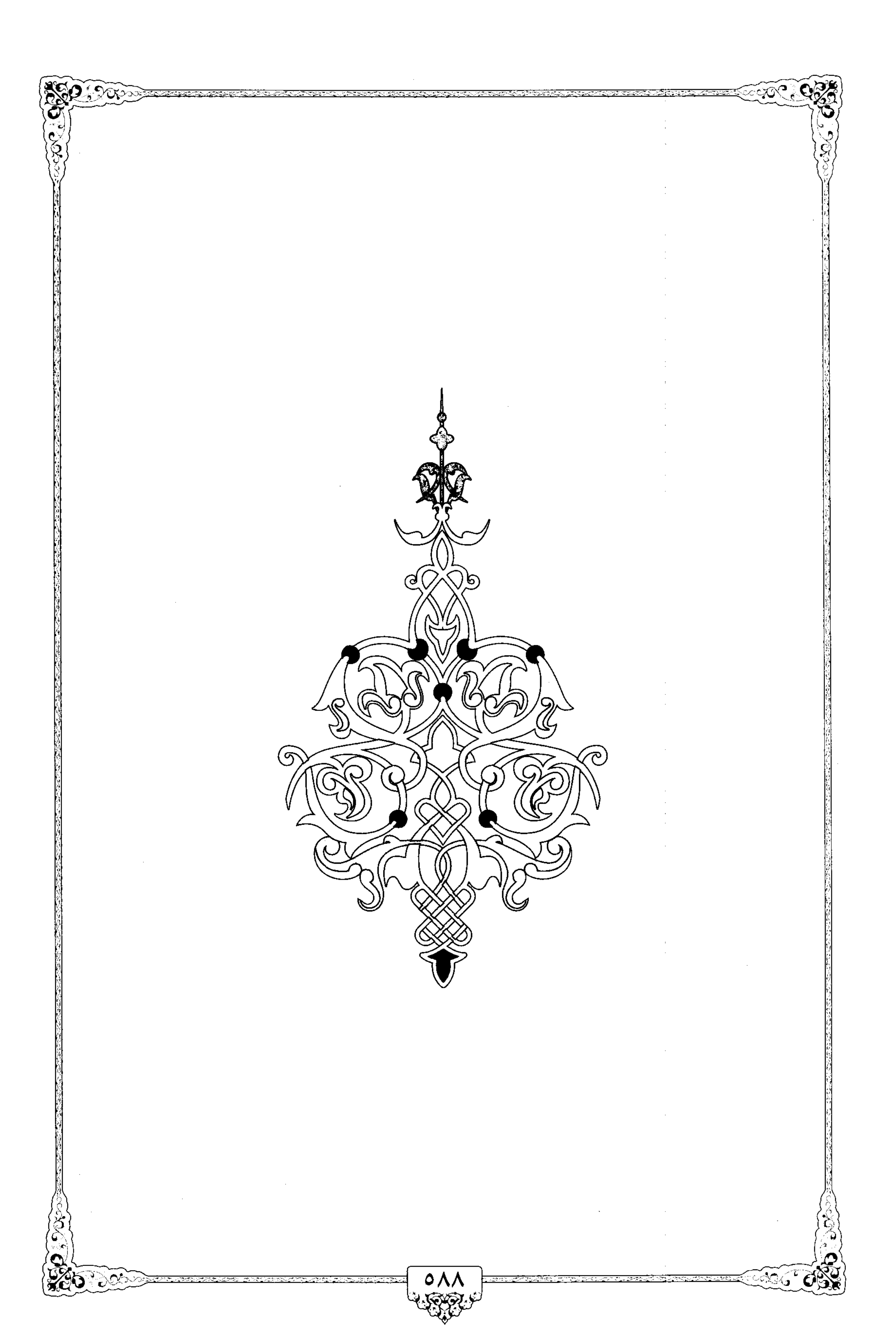


تم بفضل الله تعالىٰ وعونه وتوفيقه الفراغ من خدمة هـٰذا الكتاب الفريد ، وتصحيحه ومراجعته بمركز **دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي** يوم الأربعاء ، العشرين من شهر شوال ، **سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وألف** من هجرة سيد المرسلين ، وحبيب رب العالمين ، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

الموافق للخامس من شهر سبتمبر (أيلول) ، **سنة اثنتي عشرة وألفين** للميلاد بدمشق الشام ، **صانها الله وحماها من غدر الغادرين علىٰ مرِّ الأيام** ، وكذا سائر بلاد الإسلام ، بحق ذي الجلال والإكرام .

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

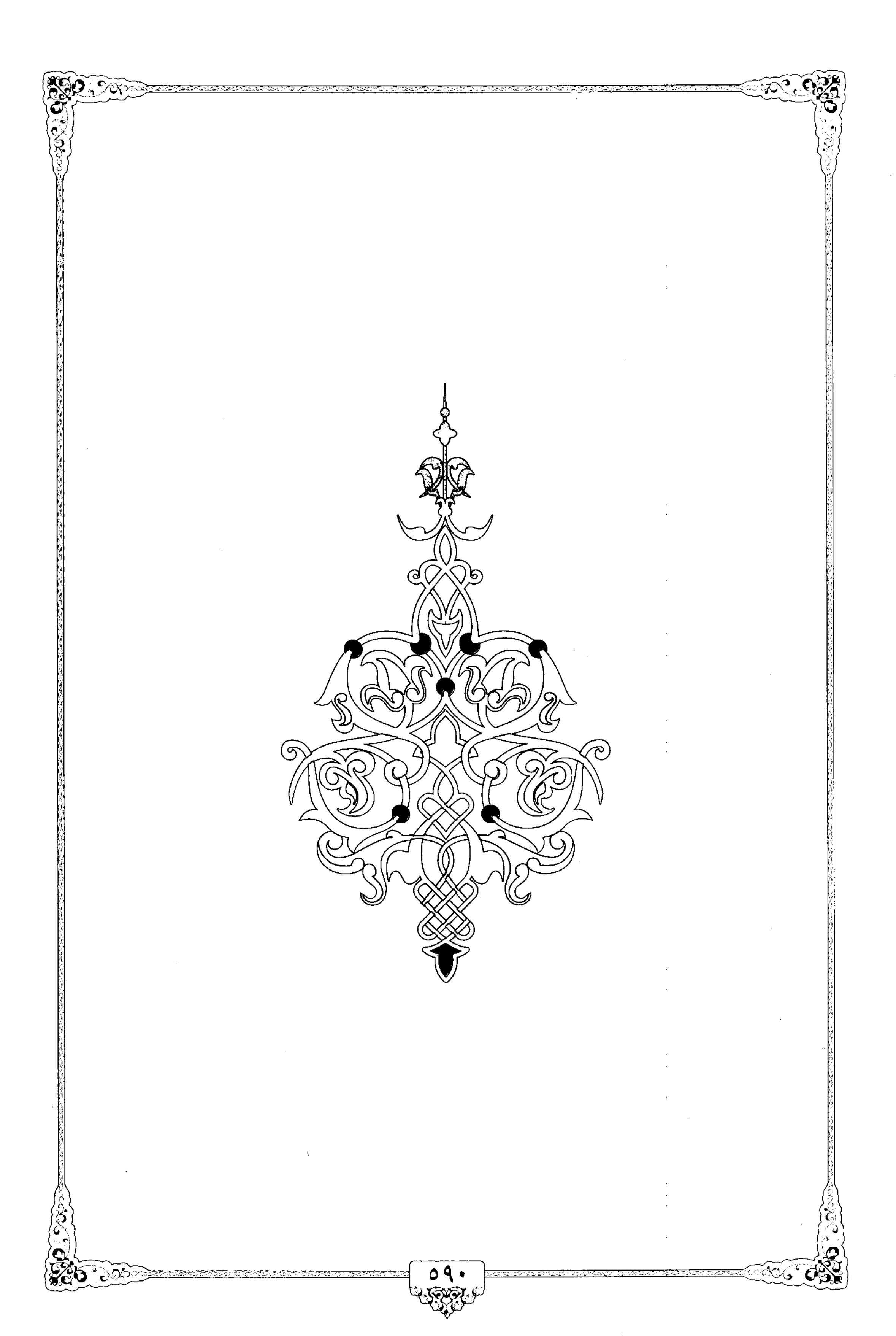






(*) ارتأى القائمون على المركز العلمي لدار المنهاج : أن يزاد هـٰذا الفصل الجديد لكون بعض المخطوطات تحتوي علىٰ فوائد ونفائس وضنائن مكتوبة في طرة المخطوطة وخاتمتها ، وهي من الأهمية بمكان .

ولذا فقد اعتمدنا : أن يكتب ما وجد من ذلك في هـٰذا الموضع ، لعموم النفع والانتفاع بذلك ، والله الموفق .



[زهد قومه به]

مَن عاش في قومه أبدَوا سآمتَهُ وعـافَـهُ منهُـمُ أهـلٌ وجيـرانُ
يحنُـو وِداداً وتبـدو منهُـمُ إحَـنٌ وليس يألُوهُمُ نُصْحاً وإن خانُوا
يهـوىٰ لإيثارهـم مَـوتـاً يعـاجِلُـهُ والمُـرتجـىٰ بعـدَه عفـوٌ وغُفـرانُ
إنْ بـانَ مِـن بينهـم سُرُّوا بغيبتِـهِ وليـس يَهنَـؤُهُ عيشٌ إذا بـانُـوا

دَعْهـا سمـاويّـةً تمشي علىٰ قَـدَرٍ لا تفسـدَنْها بـرأي منـكَ مُنتقِـدِ

لا تغتـرِرْ بـالحفـظِ والسـلامـةِ فـإنَّمـا الحيـاةُ كـالمُـدامـةِ
فـي دنِّهـا فيهـا صفـاءٌ وقـذىٰ وهكـذا فـي الـدهـرِ نفـعٌ وأذىٰ

[أبكي على المتزوج]

تزوَّجتُ لم أَعلَمْ وأخطأتُ لم أُصِبْ فيـا ليتني قـد مِـتُّ قبـلَ التـزوُّجِ
فواللهِ ما أبكي علىٰ ساكنِ الثرىٰ ولـٰكنَّـني أبكـي علـى المتـزوِّجِ

[التواضع]

تواضعْ تَكُنْ كالنجمِ يبدُو لناظرٍ علىٰ صَفَحـاتِ المـاءِ وَهْـوَ رفيـعُ
ولا تَـكُ كـالـدخّـانِ يعلُـو بنفسِـهِ إلـىٰ طبقـاتِ الجـوِّ وَهْـوَ وضيـعُ

[وصف المحبوب]

سَلُوا فاترَ الأجفانِ عن كَبِدي الحَرّىٰ وعن دَرِّ أجفاني سَلُوا العِقْدَ والنَّحْرا

حبيبٌ إذا ما رُمْتُ عنهُ تصبُّراً | يقولُ الهوىٰ لن تستطيعَ مَعِي صَبْرا
مِنَ السُّمر بالألحاظِ إنْ صالَ وانثنىٰ | فلا تذكُرُوا مِن بعدهِ البِيضَ والسُّمرا
بخيلٌ غدا بالوَصْل ما جاءَ سائلٌ | لـه الـدمـعَ إلا ردَّ سـائلَـه نَهْـرا
يُـذكِّـرُنـي عهـدَ النَّجاشيِّ خـالُـهُ | وأجفانُهُ الوَسْنىٰ تُذكِّرُني كِسرىٰ

[وضع الأمور في نصابها]

العُمْـرُ مـا حصَّلـتَ فيـه فضيلـةً | أو لا فعيشُـكَ فـي الحيـاةِ فَنـاءُ
والعِلـمُ مـا تعمـلْ بـهِ وتقُـلْ بـهِ | أو لا فـدَرْسُـكَ للعلـومِ عَنـاءُ
والمـالُ مـا أنفقتَـهُ وبـذلتَـهُ | أو لا ففقـرُكَ والغِنـاءُ سَـواءُ
والزهدُ تركُكَ للدُّنىٰ عن قدرةٍ | أو لا فـإنَّ الـزهـدَ منـكَ عَيـاءُ

[مناجاة]

يـا مَـن إليـهِ يـدُ الآمـالِ بـاسطـةٌ | ومَـن لـديـهِ عَميـمُ الجُـودِ مبذُولُ
يا واحداً تاهَتِ الألبابُ وانحسَرَتْ | عن وصفِهِ فجوادُ العَقْلِ معقُولُ
يا ربِّ عفوَكَ قد حطَّتْ ركائبُنا | والعفـوُ عنـدكَ مـرجـوٌّ ومـأمـولُ
وكـلُّ ضيـفٍ لـه حـقٌّ وجـائـزةٌ | فكيف ضيفُ كريمٍ وَهْوَ مسؤولُ

[يا نفس البدار البدار]

ويحـكِ يـا نفـسُ البِـدارَ البِـدارْ | مـا هـٰذهِ الـدنيـا لحـيٍّ بـدارْ
كـم كـدَّرتْ صَفْـواً وكـم ألبَسَـتْ | مَـن كـان فيهـا ثـوبَ ذُلٍّ وعـارْ
أيطمئـنُّ المـرءُ فـي منـزلٍ | يـرىٰ كُـؤوسَ المـوتِ فيـه تُـدارْ
قـد بَعُـدَ الـرَّبـعُ وقـلَّ البِنـا | إلـىٰ متـىٰ يـا نفـسُ ذا الاعتـذارْ
مـا بعـدَ مـوتِ المصطفـىٰ خـالـدٌ | وليـس فـي الـدنيـا لحـيٍّ قـرارْ

[تمني لمِّ الشمل]

عسى اللهُ يُدني نازحَ الدارِ بينَنا ... فنُمسي وقد قرَّتْ بذاكَ عُيونُ
وليس عزيزٌ ما طلبتُ على الذي ... مقالتُهُ للشيءِ كُنْ فيكونُ

[الوصل عذب والهجر صعب]

علَّمُوني الوِصالَ والوصلُ عذبٌ ... ورَمَوني بالهَجْر والهَجْر صعبُ
زَعَمُوا حينَ عُوتِبوا أنَّ ذنبي ... فَرْطُ حُبِّي لهم وما ذاكَ ذَنْبُ
فوَحَقِّ الخُضوعِ عندَ التَّداني ... ما جزا مَن يحبُّ إلاَّ يحبُّ

[وعود مَنْ لا يفي]

دَعْ ذِكْرَهنَّ فما لهنَّ وَفاءُ ... رِيحُ الصَّبا وعُهُودُهُنَّ سواءُ
يكسِرْنَ قلبكَ ثمَّ لا يجبُرْنَهُ ... وقلوبُهنَّ عنِ الدواءِ خلاءُ

[الدهر غيبة وحضور]

حضَرْنا ثمَّ غِبْنا ثم يحضرُ بعدَنا ... أناسٌ كذا الدهرُ غَيبة وحضورُ
فاذكُرُونا يا حاضرينَ بخيرٍ ... واعلموا بأنَّ النائباتِ تدورُ(١)

[من آداب المجالس]

إذا غابَ الفتىٰ مِن عند قومٍ ... وغابَ وعادَ في ذاك المَقامِ
فليس له عليهِمْ مِن قيامٍ ... وليس لهم عليه مِن سَلامِ

---

(١) كذا في المخطوط ، ويلاحظ أن في البيتين خللاً عروضياً ، وفي «منتخب من معجم شيوخ ابن السمعاني» (٢/ ٨٦٣) : أنشد عن أبي محمد التكريتي قوله :

قد حضرنا هٰذا المكان وغبنا ... وكذا الدهر غيبة وحضور
فاذكرونا يا حاضرين بخير ... واعلموا أن الليالي تدور

[زيارة طيف الخيال]

قالت لطيفِ خَيالٍ زارَها ومضىٰ   بـالله صِفْـهُ ولا تنقُـصْ ولا تَـزِدِ
فقـال خلَّفتُـهُ لـو مـات مِـن ظمـأٍ   وتمنَعِيـهِ زُلالَ المـاءِ لـم يَـرِدِ
قالتْ صدقْتَ وفاءُ العهدِ شِيمتُهُ   يا بَرْدَ ذاكَ الذي قالت علىٰ كَبِدي

[جنابكم حرمٌ]

جـاءتْ سليمـانَ الـزمـانِ حَمـامـةٌ   والموتُ يخفِقُ في جناحَي طائرِ
مَـن عـرَّف الـورقـاءَ أنَّ جنـابَكُـمْ   حَـرَمٌ وأنَّـكَ مَلجـأٌ للحـائـرِ

[صفقة تبت يدا شاريها]

الدَّهرُ ساوَمَني عُمري فقلتُ له   لا بعتُ عمريَ بالدنيا وما فيها
ثـمَّ اشتـراه تَفـاريقـاً بـلا ثَمَـنٍ   تبَّتْ يدا صفقةٍ قد خاب شاريها